كيف يصوغ القرآن هذه الصياغة ، وكيف تقول هي :

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

لقد كانت سيدتنا مريم البتول تحسن الاستقبال عن الله ، فساعة سمعت أن اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، عرفت أن نسبه لها يعني أنه بلا أب . وعرفت أن الحق سبحانه ما نسبه إليها إلا لأنه لا أب له .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ ﴾

ونلاحظ أن الآية تبدأ بواو العطف على ما قبلها ، وهو قوله الحق :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

ويعطف سبحانه على جرائمهم هذه الجريمة الجديدة : (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) وأكثر ما يدهش في هذا القول هو كلمة « رسول الله » ، فهل هي هنا من قولهم ؟ إن كانوا قد قالوها فهذا دليل اللجاجة المطلقة ، ولو قالوا : إنهم قتلوه فقط لكان الجرم أقل وطأة ، ولكن إن كانوا قد عرفوا أنه رسول الله وقتلوه

فهذا جرم صعب للغاية . أو أن كلمة « رسول الله » هنا فى هذه الآية ليست من مقولهم الحقيقى وإنما من مقولهم التهكمى .

وأضرب المثل لأوضح هذا الأمر . . كأن يأتى شخص ذو قوة هائلة ومشهور بقوته ويأتى له شخص آخر ويضربه ويهزمه ويقول لجماعته : لقد ضربت الفتى القوى فيكم . إذن قد يكون قولهم : « رسول الله » هو من قبيل التهكم ، أو أن كلمة « رسول الله » هنا هى من قول الحق سبحانه وتعالى مضافاً إلى قولهم ليبشع عملهم .

« وقولهم : « إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله » فكأن الحق لم يشأ أن يذكر عيسى ابن مريم إلا مرتبطا أو موصوفاً بقوله : « رسول الله » لنعلم بشاعة ما فعلوه ، فعيسى ابن مريم رسول الله على رغم أنوفهم ، وخاصة أن الكلام فى مجال انكارهم وجحودهم لنعم الله ، وكفرهم بآيات الله ، وكأن الحق يسخر منهم ؛ لأنه ما كان الله ليرسل رسولاً ليبين منهجه للناس ثم يسلط الناس على قتله قبل أن يؤدى مهمته . وجاء بكلمة « رسول الله » هنا كمقدمة ليلتفت الذهن إلى أن ما قالوه هو الكذب .

وبعد ذلك يقول لنا سبحانه : « وما قتلوه وما صلبوه » . وكلمة « وما صلبوه » هنا هى لتوضيح أن مجرد ظنهم أنهم قتلوا المسيح جعلهم يشيعون ذلك ويعلنونه للناس ، وهم قد فعلوا ذلك قبل أن يتوجهوا إلى فكرة الصلب ، فقد قتلوا شخصاً شبهه الله لهم ولم يكن هو المسيح وصلبوه من بعد ذلك ، وبمجرد قتل هذا الشخص طاروا بخبر القتل قبل أن تبدأ فكرة الصلب . ويقطع الله عليهم هذا الأمر ، فيقول : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » .

وقد لفتنا سبحانه من قبل إلى أن عملية ميلاد المسيح تم استقبالها من بنى إسرائيل بضجة ، فعلى رغم علمهم خبر مجيء المسيح بالميلاد من غير أب ، وعلى رغم أنهم علموا بناتهم الاستشراف أن يكون لأية واحدة منهن شرف حمل المسيح ، وعلى رغم ذلك قالوا البهتان فى مريم التى اصطفاها الله . وكذلك كان لمسألة الوفاة ضجة .

واقتران الضجتين : ضجة الميلاد وضجة الوفاة معاً فى رسالة السيد المسيح يدلنا

على أن العقل يجب أن تكون له وحدة تفسيرية ، فساعة يتكلم العقل عن قضية الميلاد بالنسبة لعيسى ابن مريم لا بد أن يستشعر الإنسان أن الأمر قد جاء على غير سنة موجودة ، وساعة يبلغنا الحق أن بنى إسرائيل بيتوا النية لقتل عيسى ابن مريم ، وأن الله رفعه إليه تكون المسألة قد جاءت أيضا بقضية مخالفة ، ولا بد أن نصدق ما بلغنا الله به ، وأن يتذكر العقل أن الميلاد كان مخالفاً ، فلماذا لا تكون النهاية مخالفة أيضاً ؟

وكما صدقنا أن عيسى ابن مريم جاء من غير أب ، لا بد أن نصدق أن الحق قد رفعه فى النهاية وأخذه ، فلم يكن الميلاد فى حدود تصور العقل لولا بلاغ الحق لنا ، وكذلك الوفاة لا بد أن تكون مقبولة فى حدود بلاغ الحق لنا . والميلاد والنهاية بالنسبة لعيسى ابن مريم كل منهما عجيبة . وإن فهمنا العجيبة الأولى فى الميلاد فنحن نعتبرها تمهيداً إلى أن عيسى ابن مريم دخل الوجود ودخل الحياة بأمر عجيب ، فلماذا لا يخرج منها بأمر عجيب ؟ وإن حدثنا الحق أن عيسى ابن مريم خرج من الحياة بأمر عجيب فنحن لا نستعجب ذلك ؛ لأن من بدأ بعجيب لا عجب أن ينتهى بعجيب .

وسبحانه وتعالى حكم وقال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » وكلمة « شبه لهم » هذه هى دليل على هوج المحاولة للقتل ، فقد ألقى شبهه على شخص آخر . وذلك دليل على أن المسألة كانت غير طبيعية ، ليس فيها حزم التبيّن من المتربصين القتلة . ونعلم أن الحواريين وأتباع سيدنا عيسى كانوا يلفون رءوسهم ويدارون سماتهم ، ولذلك قال الحق لنا : « ولكن شبه لهم » أى أنهم قد شبه لهم أنهم قتلوه .

واختلفت الروايات فى كلمة « شبه لهم » ، فمن قائل : إنهم حينما طلبوا عيسى ابن مريم ليقتلوه دخل خوخة ، والخوخة هى باب فى باب ، وفى البيوت القديمة كان يوجد للبيت باب كبير لإدخال الأشياء الكبيرة ، وفى هذا الباب الكبير يوجد باب صغير يسمح بمرور الأفراد ، وفى سقف البيت توجد فتحة وكوّة اسمها (روزنة) أو (ناروظة) .

فلما طلبوا عيسى دخل الخوخة ، ودخل خلفه رجل اسمه « تطيانوس » وعندما

رأى سيدنا عيسى هذا الأمر أهمه الله أن ينظر إلى أعلى فوجد شيئاً يرفعه ، فلما استبطأ القومُ « تطيانوس » خرج عليهم فتساءلوا : إن كان هذا تطيانوس فأين عيسى ؟ وإن كان هذا عيسى فأين تطيانوس ؟

إذن فقد اختلط عليهم الشبه بين « تطيانوس » وعيسى ، وألقى الله شبه عيسى على « تطيانوس » فقتلوه . أو أن عيسى عليه السلام حينما دخلوا عليه كان معه الحواريون وقال لهم عيسى : أيكم يُلقى عليه شبهى وله الجنة ؟ فماذا إذن يريد الحوارى لنفسه أكثر من الجنة ؟ وقدم عيسى عليه السلام الجائزة الكبرى لأى مؤمن ، وقبل واحد من الحواريين هذه المهمة ، ويقال له « سرخس » . فألقى شبه المسيح عيسى عليه ، فقتل اليهود « سرخس » .

وقالوا : إنه حينما عرف بعض الذين ذهبوا لقتل عيسى أنه رُفع ، خافوا أن تنتشر حكاية رفع عيسى بين الناس فيؤمنوا برسالة عيسى ، وقد ينتقم الناس من الذين أرادوا قتله . ولذلك جاء القتلة بشخص وقتلوه وألقى على هذا القتيل شبه عيسى وأعلن القتلة أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم . أو أن القتيل هو واحد ممن باعوا نبى الله عيسى لليهود ، ولما رأى المشهد ووجد المتربصين بعيسى يدخلون على الحواريين وفيهم عيسى وسأل المتربصون الحواريين : أيكم عيسى ؟ فتيقظت ملكة التوبه فى نفس الذى وشى بعيسى وقاده تأنيب الضمير على خيانة الرسول إلى أن يقول : « أنا عيسى » . ولم يتصور المتربصون أن يجيب إنسان على قولهم : « أيكم عيسى » . إلا وهو عيسى بالفعل ؛ لأن مشهد المتربصين يوحى أنهم سيقتلون عيسى . وقتلوا الذى اعترف على نفسه دون تثبت . أو أن واحداً باع عيسى لقاء ثلاثين ديناراً وتشابه عليهم فقتلوا الواشى ، ولم يظفروا بعيسى ابن مريم . ونحن كمسلمين لا نهتم اهتماماً كبيراً بتلك الروايات . فالمهم أنهم قالوا قتلنا عيسى . وصلبناه .

وقرآننا الذى نزل على رسولنا صلى الله عليه وسلم قال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » . وقال الحق لنا : إنه رفع عيسى إليه ، وانتهت المسألة بالنسبة لنا ؛ لأننا كمؤمنين لا نأخذ الجزئيات الدينية أولاً فإن صدقناها آمنا ، لا . نحن نؤمن أولاً بمُنَزِّل هذه الجزئيات ونصدق من بعد ذلك كل ما جاء منه سبحانه ، وهو قال ذلك فآمنا به وانتهت المسألة .

إن البحث فى هذا الأمر لا يعنينا فى شىء ، ويكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » . ويدلنا هذا القول على عدم تثبت القتلة من شخصية القتيل ، وهو أمر متوقع فى مسألة مثل هذه ، حيث يمكن أن تختلط الأمور .

إننا نرى ذلك فى أية حادثة تحدث مع وجود أعداد كبيرة من البشر وأعينهم مفتوحة ، وعلى الرغم من ذلك تختلف فيها الروايات . بل وقد تكون الحادثة مصورة ومسجلة ومع ذلك تختلف الروايات ، فما بالنا بوجود حادثة مثل هذه فى زمن قديم لا توجد به كل الاحتياطات التى نراها فى زماننا ؟ إذن فاضطراب الآراء والروايات فى تلك الحادثة أمر وارد ، ويكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال : « وما قتلوه وما صلبوه » .

فعيسى باق ؛ لأن الحق لم يأت لنا بخبر موت عيسى . ويبقى الأمر على أصل ما وردت به الآيات من أن الله سبحانه وتعالى رفع عيسى ابن مريم . وكمسلمين لا نستبعد أن يكون الحق سبحانه وتعالى قد رفعه إلى السماء ؛ لأن المبدأ ـ مبدأ وجود بشر فى السماء ـ قد ثبت لرسولنا صلى الله عليه وسلم ، فقد حدثنا صلى الله عليه وسلم أنه عُرج به إلى السماء ، وأنه صعد وقابل الأنبياء ورأى الكثير من الرؤى ، إذن فمبدأ صعود واحد من البشر من الأرض وهو لايزال على قيد الحياة البشرية المادية إلى السماء أمر وارد . والخلاف يكون فى المدة الزمنية ، لكنه خلاف لا ينقض مبدأ ، سواء صعد وبقى فى السماء دقائق أو ساعات أو شهوراً . فإن حاول أحد أن يشكك فى هذه المسألة نقول له : كل أمر قد يقف العقل فيه يتناوله الحق سبحانه وتعالى تناولاً موسعاً . فسبحانه خالق رحيم لا يورد نصاً بحيث يتوقف العقل أمامه ، فإن قبل العقل النص كان بها ، وإن لم يقبله وجدت له مندوحة ، لأنه أمر لا يتعلق بصلب العقيدة .

فهب أن إنساناً قال إن عيسى لم يرفع بل مات ، فما الذى زاد من العقائد وما الذى نقص ؟ ذلك أمر لا يضر ولا ينفع . ومثل ذلك الإسراء ، جاء فيه الحق بالقول القرآنى :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى

﴿ بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١ ﴾

(سورة الإسراء)

ولم يقل الحق أى قول فى أمر المعراج ، لأن الإسراء آية أرضية ، انتقل فيها الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس . ونعلم أن رسول الله لم يذهب إلى بيت المقدس قبل الإسراء ، بدليل أن كفار مكة أرادوا إحراج الرسول فقالوا له : صف لنا بيت المقدس . وهم واثقون من عدم ذهابه إليه من قبل . وكان فى الطريق قوافل لهم رآها صلى الله عليه وسلم ، ووصف صلى الله عليه وسلم بيت المقدس وقال لهم عن أخبار قوافلهم . وجاءت القوافل مثبتة لصدق محمد صلى الله عليه وسلم .

إذن كان الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم آية أرضية يمكن أن يقام عليها الدليل . ولذلك جاء بها الحق صريحة فقال : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً مّن المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) .

لكن المعراج لم يذكره الحق صراحة ، فلم يكن من قريش ولا من أهل الأرض من رأى سدرة المنتهى ، ولم يكن لأحد من أهل الأرض القدرة على أن يصف طريق المعراج .

إذن فالآيات التى يقف فيها العقل يتناولها القرآن تناولاً موسعاً رحمة بالعقول ؛ لأن الإنسان إن اعتقد بها فهذا أمر جائز ، وعدم الاعتقاد بها لا يؤثر فى أصل العقيدة ، ولا فى أصول التكليفات ، ومدارها التصديق . ومادام الحق سبحانه وتعالى قد فوض رسوله أن يعطينا أحكاماً . إن عملنا بها جزانا الله الثواب ، وإن لم نعمل بها نالنا العقاب « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، فكيف لا يفوضه فى أن يقول لنا بعضاً من الأخبار ؟!

ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ وذكره البخارى فى صحيحه أنه قال :

« والذى نفسى بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر

الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، وحتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها » . ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً »[1] .

هذه أخبار أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن لا توجد قضية عقدية تقف مستعصية أمام عقول المسلمين خاصة . أن البعض قد يقول : إن الحق سبحانه قد قال :

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة آل عمران)

وقد شرحنا من قبل فى خواطرنا عن سورة آل عمران كل الشرح لهذه المسألة . قلنا : إن علينا أن ننتبه إلى « واو العطف » بين « متوفيك » و« رافعك » .

ومن قال إن « واو العطف » تقتضى الترتيب ؟ إن « واو العطف » تقتضى الجمع فقط كقولنا : « جاءنى زيد وعمرو » ، هذا يعنى أن زيداً جاء مع عمرو . أو أن زيداً جاء أولاً ، أو أن عمراً جاء أولاً وتبعه زيد ، فـ « الواو » لا تقتضى الترتيب ، وإنما مقتضاها الجمع فقط

لكن إن قلنا « جاءنى زيد فعمرو » فزيد هو الذى جاء أولاً وتبعه عمرو ؛ لأن « الفاء » تقتضى الترتيب ، أما « الواو » فتأتى لمطلق الجمع ولا تتعلق بكيفية الجمع ، وسبحانه قال : « إنى متوفيك ورافعك إلىَّ » هذا الضرب من الجمع لا يدل على أن التوفى قد تم قبل الرفع ، ودليلنا أن الحق سبحانه أنزل فى القرآن آيات تدل على مثل هذا ، كقوله الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ ﴾

(من الآية ٧ سورة الأحزاب)

فسبحانه أخذ الميثاق من محمد صلى الله عليه وسلم وجمع معه سيدنا نوحاً وإبراهيم ، فهل هذا الجمع كان قائماً على الترتيب ؟ لا ؛ لأن نوحاً متقدم جداً فى

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم .

الموكب الرسالى وسبق سيدنا رسول الله بسنوات طويلة ويفصل بينهما رسل كثيرون .
إذن فـ « الواو » لا تقتضى الترتيب فى الجمع . ولماذا جاء الحق بأمر الوفاة مع أمر الرفع ؟ جاء الحق بذلك ليشعر عيسى أن الوفاة أمر مقطوع به ، لكن الرفع مجرد عملية مرحلية .

أو جاء قوله الحق : « إنى متوفيك ورافعك إلىَّ » ؛ لأن الإنسان المخلوق لله مكون ومركب من مادة وفى داخلها الروح ، وعندما يريد الحق أن ينهى حياة إنسان ما ، فهو يقبضه بدون سبب وبدون نقض فى البنية ، ويموت حتف أنفه ، أما إذا ما ضرب إنسان إنساناً ضربة عنيفة على رأسه فالمضروب أيضاً يموت ، لأن الروح لا تحل فى جسم به عطب شديد .

إذن فالحق أوضح لعيسى : أنا آخذك إلىّ وأرفعك متوفياً وليس بجسدك أىُّ نقضٍ لبنيتك أو هدم لها أو لبعضها ، بل آخذك كاملاً . فـ « متوفيك » تعنى الأخذ كاملاً دون نقض للبنية بالقتل .

ونحن ـ كما عرفنا من قبل ـ نفرق بين القتل والموت . فالموت هو أن تُقبض الروح حتف الأنف ، أما القتل فهو هدم للبنية فتزهق الروح ، والدليل على ذلك أن الحق فى كتابه الكريم قال :

﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

إذن فحين قال بنو إسرائيل : إنهم قتلوا عيسى ابن مريم كذبهم الحق وقال : « وما قتلوه وما صلبوه » . ورفعه الله إليه كاملاً ، وسبحانه وتعالى يقول : (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً) . ويوضح الحق سبحانه وتعالى : لم يتيقنوا أنهم قتلوا عيسى ابن مريم ، لكنهم شكوا فيمن قُتل ، فلم يعرف المتربصون لقتله أقتلوا عيسى أو تطيانوس أو سرخس ؟

والحق سبحانه جاء هنا بنسبتين متقابلتين ، فبعد أن نفى سبحانه نبأ مقتل عيسى

ابن مريم قال : « وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن » . والنسبة الأولى المذكورة هنا هى الشك ، وهو نسبة يتساوى فيها الأمران . والنسبة الثانية هى اتباعهم للظن ، وهو نسبة راجحة . لقد بدأ الأمر بالنسبة إليهم شكاً ثم انقلب ظناً .

وينهى الحق ذلك بعلم يقينى « وما قتلوه يقيناً » وسبحانه ينفى بذلك أنهم قتلوه يقيناً ، واليقين ـ كما نعلم ـ هو الأمر الثابت المعقود فى الواقع والأعماق بحيث لا يطفو إلى الذهن ليناقش من جديد أو يتغير ، وله مراحل هى : مرحلة العلم ، واسمها علم اليقين ، ومرحلة العين ، واسمها عين اليقين ، ومرحلة الحقيقة ، واسمها حق اليقين .

وعندما يخبرنا واحد من الناس أن جزءا من نيويورك اسمه « مانهاتن » . وأن مانهاتن هذه هى جزيرة يصل تعداد سكانها إلى عشرة ملايين نسمة ، وفيها ناطحات سحاب ، وجاء هذا الخبر ممن لا نعرف عنه الكذب فيسمعه من لم ير نيويورك ، فيصير مضمون الخبر عنده علماً متيقناً ؛ لأن الذى أخبر به موثوق به . وإن جاء آخر ووجه للسامع عن نيويورك دعوة لزيارتها ولبى السامع الدعوة وذهب إلى نيويورك ، هنا تحول الخبر من « علم اليقين » إلى « عين اليقين » . وإن جاء ثالث وصحب السامع إلى قلب نيويورك وطاف به فى كل شوارعها ومبانيها ، فهذا هو « حق اليقين » .

وأسمى أنواع اليقين هو « حق اليقين » ، وقبلها « عين اليقين » ، وقبل « عين اليقين » « علم اليقين » . وحينما عرض سبحانه المسألة قال :

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة التكاثر)

هو سبحانه يعطينا علم اليقين ، ويصدقه المؤمنون بهذا العلم قبل أن يروه ، وسيرى المؤمنون وهم على الصراط النارَ وذلك عين اليقين . أما مسألة دخول الذين يرون الجحيم إليها فأمر سكت عنه الحق ، لأن هناك من يدخل الجنة ولا يدخل

النار ، وهناك من يدخل النار ولا يدخل الجنة . والكافرون بالله هم الذين سيرون الجحيم حق اليقين . ويأتى « حق اليقين » فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنۡ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

فكل مكذب ضال سينزل إلى الحميم ويصلى الجحيم ويعانى من عذابها حق اليقين . إذن فقوله الحق عن مسألة قتل عيسى ابن مريم : « وما قتلوه يقيناً » يصدقه الذين لم يشاهدوا الحادث ، تصديق علم يقين لأن الله هو القائل . والذين رأوا الحادث عرفوا أنهم لم يقتلوه ولكنهم شكوا فى ذلك . وأما من باشر عملية القتل لإنسان غير عيسى عليه السلام فهو الذى عرف حقيقة اليقين . والذى حدث هو ما يلى :

﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾

لقد رفعه العزيز الذى لا يغلبه أحد على الإطلاق ، فهو القوى الشديد الذى لا ينال منه أحد ، فإذا كانوا قد أرادوا قتل رسوله عيسى ابن مريم ، فالله غالب على أمره ، وهو العزيز بحكمة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾

و« إن » هنا هى « إن » النافية ، وهى غير « إن » الشرطية . وإليكم هذا المثال عن « إن » النافية من موضع آخر من القرآن حين قال الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

يصحح الحق هنا الخطأ الذى وقع فيه هؤلاء الذين يظاهرون من نسائهم بقول الواحد منهم لزوجته : « أنت علىّ كظهر أمى » ، فيقول سبحانه :

﴿ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

فيوضح سبحانه : ما أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم . و« إن » فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا الآن عنها هى « إن » النافية .

كأن الحق يقول : ما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به قبل موته . وهذا شرح لمعنى « إن النافية » . وقد يقول قائل : ما حكاية الضمائر فى هذه الآية ؟ فالآية بها أكثر من ضمير ، مثل قوله الحق : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » وعلى من تعود « به » ؟ وعلى من تعود الهاء فى آخر قوله « موته » ؟ هل هو موت عيسى أو موت أى واحد من أهل الكتاب ، فالمذكور عيسى ، ومذكور أيضاً أهل الكتاب ، فيصح أن يكون القول كالآتى :

لن يموت واحد من أهل الكتاب إلا بعد أن يؤمن بعيسى ، ويصح أيضاً : لن يموت عيسى إلا بعد أن يؤمن به كل واحد من أهل الكتاب ، ولأن الضمير لا يعرف إلا بمرجعه ، والمرجع يبين الضمير . فإن كانت هناك ألفاظ سبقت .. فكل منها يصح أن يكون مرجعاً ، أو أن يعود الضمير على بعض مرجعه كقول الحق :

﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ﴾

(من الآية ١١ سورة فاطر)

والمعمَّر هو الإنسان الذى طعن فى السن ، ولا ينقص من عمر هذا المعمَّر إلا كما أراد الله ، والهاء فى « عمره » تعود إلى بعض من المعمَّر . ذلك أن كلمة « معمَّر »

مكونة من عنصرين هما « ذات الرجل » و« عمر الرجل » ، فلما عاد الضمير عاد على الذات دون التعمير ، فيكون المعنى هو : وما يعمَّر من معمَّر ولا ينقص من عمر ذات لم يثبت لها التعمير . وماذا يكون الحال حين يوجد مرجعان ؟ مثل قوله الحق :

﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾

(من الآية ٢ سورة الرعد)

هنا نجد مرجعين : « السماء » و« العمد » فعلى أى منهما تعود الهاء الموجودة فى كلمة « ترونها » ، هل تعود « الهاء » إلى المرجع الأول وهو السموات ، أو للمرجع الثانى وهو « العمد » ؟ يصح أن تعود « الهاء » إلى السموات . . أى خلق السموات مرتفعة قائمة بقدرته لا تستند على شيء وأنتم تنظرون إليها وتشاهدونها بغير دعائم ، ويصح أيضاً أن تعود إلى العمد . أى بغير العمد التى نعرفها ولكن رفعها الحق بقوانين الجاذبية . أو رفع السموات « بغير عمد ترونها » أى أن العمد مختفية عن رؤية البشر . وهكذا يصح أن يُنسب الضمير ويعود إلى أحد المرجعين .

والآية التى نحن بصددها ، نجد أنه قد تقدم فيها شيئان هما المسيح وأهل الكتاب ، وفيهما ضميران اثنان . فهل يعود الضميران على عيسى ، أو يعودان على أهل الكتاب ؟ أو يعود ضمير منهما على عيسى والآخر على أهل الكتاب ؟ وأى منهما الذى يرجع على عيسى ، وأى منهما الذى يرجع على أهل الكتاب ؟ أو أن هناك مرجعاً ثالثاً لم يُذكر ويعلم من السياق هو محمد صلى الله عليه وسلم ، ونجد أن الضميرين قد يرجعان إلى المرجع الثالث ، أى إلى محمد صلى الله عليه وسلم الذى بشر بمجيئه عيسى ابن مريم ، وتواتر الأحاديث عن أن عيسى يوشك أن ينزل فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ولسوف يصلى عيسى ابن مريم خلف واحد من أمة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

ولماذا التقى النصارى مع اليهود فى مسألة القتل والصلب ؟ هم معذورون فى ذلك ؛ لأن الحق لم يأت ببيان فيها آنئذ . وقوله : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » يدل على أنهم معذورون إن قالوا ذلك . ولكن كان الواجبَ أن يتمردوا على مسألة الصلب هذه ، إن كان فيه ألوهية أو جزء من ألوهية ، وكان من الواجب أن يخفوا مسألة الصلب . ويأتى الإسلام ليبرىء عيسى عليه السلام من هذه المسألة ويعين أتباع عيسى على تبرئته منها .

ولكن لم يلتفت أتباع عيسى إلى قول الإسلام فى هذه القضية « ولكن شبه لهم » وكان يجب أن يلتفت إليها أتباع المسيح . وحين يقص الحق كل ذلك فهو يحكم من بعد ذلك حكماً إلهياً : (بل رفعه الله إليه) النصارى يقولون بالرفع ، ولكن بعد الصلب . ونحن المسلمين نقول بالرفع ولا صلب ، رفعه الله إليه وسينزل . وحكمة ذلك أنه لم يوجد رسول من الرسل السابقين فُتن فيه قومه فجعلوه بعضاً من إله أو إلهاً فلم تسكت السماء عن ذلك ، فرفعه سبحانه وسينزله ليسفه هذه القضية ، وبعد ذلك يجرى عليه قدر الله فى خلقه وهو الموت .

إن الذين يقفون فى هذه المسألة يجب ألا يقفوا ، لأن مسألة سيدنا عيسى عليه السلام بدأها الله بعجيبة خرقت النواميس لأنه وُلد من أم دون أب . فإن كنتم قد صدقتم العجيبة فى الميلاد ، فلماذا لا تصدون العجيبة فى مسألة الرفع ؟

وإن قال واحد منا : لقد مات عيسى عليه السلام . نقول : ماذا تقولون فى نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام ؟ أصعد إلى السماء معروجاً به إليها ؟ ألم يكن رسول الله حياً بقانون الأحياء ؟ نعم كان حياً بقانون الأحياء . وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة وجيزة فى السماء ثم نزل إلينا ، إذن فالمسألة فى أن يذهب خلق من خلق الله بإرادة الحق وقدرته إلى السماء وهو حى ثم ينزل إلى الأرض وهو حىٌ ليس عجيبة .

والخلاف بين رفع عيسى وصعود محمد صلى الله عليه وسلم بالمعراج خلاف فى المدة . وهذا لا ينقض المبدأ ؛ فالمهم أنه صعد بحياته ونزل بحياته ، وظل فترة من الزمن بحياته ، إذن فمسألة الصعود إلى السماء والبقاء فيها لمدة أمر وارد فى شريعتنا الإسلامية . ولتأكيد هذه المسألة يقول الحق :

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة النساء)

السامع السطحى لهذه الآية قد يقول : إنهم أهل كتاب ولا بد أن يكونوا قد آمنوا به ، وأقول : لا . لقد آمنوا به إيماناً مراداً لأنفسهم ، وليس الإيمان المراد لله ، آمنوا به إلهاً أو جزءًا من إله وهو ما يسمى لديهم بالثالوث ـ الآب والابن وروح القدس ـ ولكن الله يريد أن يؤمنوا به رسولاً وبشرًا وعبدًا .

وإذا قال الحق : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » فمعنى هذا : ما أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام رسولاً وعبداً وبشراً قبل أن يموت .

والضمير فى قوله: « إلا ليؤمنن به » يرجع إلى عيسى . والضمير الآخر الموجود فى « قبل موته » قد يرجع إلى عيسى أى قبل موت عيسى ولن يموت عليه السلام الموتة الحقيقية التى تنهى أجله فى الحياة إلا بعد أن يؤمنوا به عبداً ورسولاً وبشراً ، ولن يتحقق ذلك إلا إذا جاء بشحمه ولحمه ودمه ليقول لهم : أنتم مخطئون فى أنكم أنكرتم بشارتى بمحمد الخاتم ، وأنتم مخطئون فى اتهامكم لأمى ، والدليل على خطئكم هو أننى جئت مبشراً برسول للناس كافة هو محمد بن عبدالله ، وهأنذا أصلى خلف واحد من أمة ذلك الرسول . فلن يأتى عيسى - عليه السلام - بتشريع جديد بل ليصلى خلف واحد من المؤمنين بمحمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم .

وحين يصنع عيسى ابن مريم ذلك ، ماذا سيقول الذين فُتِنوا فيه ؟ . لاشك أنهم سيعلنون الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو أن كل كتابى من الذين عاشوا فى المسافة الزمنية من بعد رفعه وحتى نزوله مرة أخرى سيعلن الإيمان بعيسى كبشر ورسول وعبد قبل أن يموت ولو فى غيبوبة النهاية عندما تبلغ الروح الحلقوم وتتردد فى الحلق عند الموت . فقد يصح أن تكون الآية عامة « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » ويعود الضمير فيها إلى كل كتابى قبل أن يموت .

إن النفس البشرية لها هوى قد يستر عنها الحقائق ويغلق دونها باب اليقين ويدفعها إلى ذلك غرور الحياة ، فإذا ما جاءت سكرة الموت بالحق ، انتهى كل شىء يُبعد الإنسان عن منهج الحق واليقين ؛ ولا تبقى إلا القضايا بحقها وصدقها ويقينها ، وتستيقظ النفس البشرية لحظة تظن أنها ستلقى الله فيها ويسقط غرور الحياة ، ويراجع الإنسان منهم نفسه فى هذه اللحظة ، ويقول : أنا اتبعت هوى نفسى . ولكن أينفع مثل هذا اللون من الإيمان صاحبَه ؟ لا ، لأن مثله فى ذلك مثل إيمان فرعون ، فقد قال حين أدركه الغرق :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة يونس)

فيسمع صوتَ الحق فى تلك اللحظة :

﴿ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة يونس)

فلم ينتفع فرعون لحظة الغرق بالإيمان .

ويقول ـ سبحانه ـ :

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

ويذيل الحق الآية : « ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » وهذا يؤكد أن عيسى عليه السلام سيشهد على من عاصروا نزوله فى الدنيا ، وسوف يشهد يوم القيامة على الذين ادعوا له بالألوهية :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ويعاود الحق سبحانه الكلام عن فظائع اليهود فيقول :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾

هو سبحانه يوضح أن تحريم بعض الطيبات على بنى إسرائيل جاء نتيجة لمواقف يعددها الله ، لقد ارتكبوا ما ارتكبوا من ذنوب كبيرة وظلموا أنفسهم وظلموا